ردود على شبهات كارل بروكلمان في موقفه من السّيرة النّبوية
"دراسة نقديّة لكتاب تاريخ الشّعوب الإسلامية"

Responses to Karl Brockelmann's Suspicions of His Position on the Prophet's Biography
"A Critical Study of the History of the Islamic Peoples Book"

طارق ربحي[1] *، ياسمين فيدوح[2]
[1] جامعة مستغانم (الجزائر)، mouradtarek28@hotmail.com
[2] جامعة مستغانم (الجزائر)، fidouhyasmina@gmail.com
Tarek Rebhi*[1], Fidouh Yasmina[2]
[1] University of Mostaghanem (Algeria)
[2] University of Mostaghanem (Algeria)

تاريخ الاستلام:2021/07/30 تاريخ القبول:2021/12/18 تاريخ النشر:2022/01/15

ملخص:

تعدّدت المدارس الاستشراقيّة، وتشعّبت مجالاتها البحثيّة، فقد أدلى المستشرقون- على اختلاف مشاربهم- بدلائهم في كلّ ما له علاقة بالإسلام والمسلمين، منطلقين في ذلكَ من علاقتهم بالمؤسّسات الكنسية في أوربا من جهة، وكذا من عصارة ما وصلت إليه مناهج البحث العلمي في الحضارة الغربيّة من جهة أخرى، ولكنّ الملاحظ أنّ تأثير الكنيسة عليهم كان دائمًا مقدّمًا على أيّ تأثير آخر، لدرجة جعلت كثيرًا منهم يعمد إلى ليّ عنق الحقائق الواضحة إذا خالفت ما يؤمن به، ونجد من بين هؤلاء المستشرقين كارل بروكلمان، والذي على خلاف صيته وسمعته في العالم الغربي والشّرقي إلّا أنّ تناوله لسيرة النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام لم يخلُ من غرابة، فقد جاءت أحكامه ضحلة، ولم تعدُ أنْ تكون اجترارًا لمنْ سبقه من المستشرقين، ولذلك فقد حاولنا الرّدّ عليه بأسلوب علمي وبيان ما وقع فيه من أخطاء.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق؛ بروكلمان؛ الإسلام؛ السّيرة النّبويّة؛ الرّسول.

Abstract:

Schools of Orientalism are various, and their areas of research expanded too, where Orientalists – regardless of their affiliation – had written about everything related to Islam and Muslims, and these descriptions were based on their relationship with the ecclesiastical institutions in Europe on one hand, and the latest scientific research methods that have been reached in the Western civilization on the other hand. Yet, it is noticeable that they were highly influenced by the Church to the extent that many of them had deliberately twisted the clear facts if they contradicted what they believed in. Among these Orientalists, Karl Brockelmann, in spite of the reputation that he gains in the Western and Eastern worlds, his approach to writing the biography of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, was full of strangeness, and his judgments were weak, and they were merely a repetition of what the Orientalists who preceded him. Therefore, we tried to respond to him in a scientific manner and attempted to clarify the errors that he committed.

Keywords:. Orientalism; Brockelmann; Islam; Prophet's Biography; Prophet.

* المؤلف المرسل.

1- مقدمة:

إنّ للعلاقة بين العالمين الشرقي والغربي جذورا ضاربة في القدم، فهذا جلوب باشا الكاتب والقائد الانجليزي للجيش الأردني حتى سنة 1956م يعترف قائلا " إنّ تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنمّا تعود إلى القرن السابع للميلاد" (عيد، 1999، صفحة 03)، فقد بدأ الاحتكاك الفعليّ بين العالمين الشرقي والغربي منذ أن ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وقد اتخذ هذا الاحتكاك صورًا وأشكالا مختلفة، بداية بالصورة العسكرية، متمثلة في الحروب الصليبية التي شنّها المسيحيون على البلاد الإسلامية، وقد فشل هذا الصراع في تحقيق مسعاه، فرجع الغرب المسيحي إلى دياره خائبًا مدحورًا.

ثم أخذ الاحتكاك منحًى آخر فيمّم الرهبان والقساوسة المسيحيون وجوههم-وقد كانوا أفضل من غيرهم من الناحية العلمية-صوب البلاد الإسلامية في الأندلس، فتتلمذوا على يد علمائها، وتعلموا اللغة ومختلف العلوم الدينية والدنيوية، واحتملوا في ذلك المشاقّ، ثم رجعوا إلى بلادهم، فأنشأوا الجامعات، و كراسي للغات الشرقية، وأخذوا يعلمون غيرهم وينشرون العلوم التي أخذوها عن المسلمين.

وبعد ضعف الدّولة العثمانية في عصرنا الحديث، ركب المستشرقون موجة الاستعمار الغربي الذي اجتاح البلاد العربية والإسلامية، فأمدّوه بخلاصة تجاربهم وعصارة أفكارهم حول شعوب المنطقة الإسلامية وكيفية التعامل معها، فقد كان الكثير من هؤلاء تابعين ومستشارين في وزارات بلدانهم الحربية، وذلك في مقابل العديد من الامتيازات كالمال وحرية التنقل في البلاد المستعمرة، وكذا وضع أيديهم على ذخائر ومخطوطات البلاد العربية بشتّى الوسائل، فكانوا يأخذونها تارة ببذل المال، وتارة بالخداع والطرق الملتوية، ثم ينقلونها إلى مكتباتهم في أوربا، ومن ثمّ يعكفون على دراستها وترجمتها وتحقيقها وفهرستها.

ولذلك فقد تهيّأ للمستشرقين أنْ يكتبوا في كل ما له علاقة بالإسلام والمسلمين، فكتبوا عن القرآن الكريم، وترجموه إلى مختلف اللغات الأوروبية، كما كتبوا عن السنّة النبوية، فتكلموا عن الأحاديث، وعن سندها ومتنها ورواتها ،كما خاضوا في مجال السيرة والتاريخ الإسلامي، وطبّقوا عليهما مختلف المناهج التي توصل إليها الفكر الغربي، يضاف إلى هذا كتاباتهم عن الأدب العربي والشعر والتصوف، ومختلف مجالات المعرفة عند المسلمين.

ومن بين مدارس الاستشراق التي شغلت الدّارسين، فقسّمتهم بين قادح فيها، وبين مادح يكيل لها الثّناء نجد المدرسة الألمانية، ومن بين المقدّمين والمبرّزين في هذه المدرسة نجد المستشرق كارل بروكلمان، الذي ألّف العديد من الكتب المهمة، ككتاب تاريخ الأدب العربي، والذي صار مرجعا مهما يعود إليه كل من يكتب عن الأدب العربي، فقلّ أن نجد كتابًا في تاريخ الأدب العربي يخلو من الإشارة إلى كتاب بروكلمان.

كما نجد أيضا كتابه الموسوم ب"تاريخ الشعوب الإسلامية"، وهو موضوع ورقتنا هذه، وقدْ أرّخ فيه بروكلمان للأمة العربية و الإسلامية منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث، وقد انصبّ عملنا في هذه الورقة البحثيّة على الجزء الخاص بسيرة الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم، حيث نهدف من خلالها إلى تسليط الضّوء على نظرة بروكلمان إلى سيرة النّبيّ محمّد عليه الصّلاة والسّلام، فنحاول مناقشته في بعض أرائه ، فهل استطاع الإتيان بجديد أم أنّه سار في نفس النّهج الذي سلكه من قبله من المستشرقين؟ وهل كان منصفًا وموضوعيّا ؟ أم أنّ أحكامه واستنتاجاته قد جاءتْ تبَعًا لفرضيات مسبقة؟ وقد قسّمت موضوعي إلى عدّة نقاط، فبدأته بمقدّمة

عن علاقة العالمين الشّرقي والغربي، ثمّ تكلّمت بإيجاز عن الاستشراق وماهيته، ودوافعه، ثمّ انتقلت للحديث عن بروكلمان ومنزلته العلميّة، وبعدها شرعت في مناقشة آراء بروكلمان، وبيان ما وقع فيه من أخطاء في السيّرة النّبويّة، ثمّ جاءت الخاتمة كخلاصة لأهمّ النتائج التي توصّلت إليها في مقالي.

2- ماهية الاستشراق، ودوافعه:

1.2- ماهية الاستشراق:

أ- لغة: جاء في القاموس المحيط: وشرقت الشمس شروقا، كأشرقت...وأشرق: دخل في شروق الشمس، والتشريق: الجمال وإشراق الوجه والأخذ في ناحية الشرق (الفيروزآبادي، 2005، صفحة 897).

وكلمة استشراق مأخوذة من لفظة "شرق"، ثم أضيف إليها: الألف والسين والتاء، وهذه الأخيرة تدل على الطلب، ولذلك فمعنى هذه الكلمة هو: طلب الشرق وكل ما يمتّ له بصلة.

ب- اصطلاحًا: دراسات قام بها علماء وباحثون غربيون تشمل كلّ ماله علاقة بالشّرق عمومًا وبالإسلام خصوصًا من لغة وأدب وتاريخ وثقافة وعلوم، لدوافع وأهداف مختلفة.

2.2- دوافع وأسباب نشأة الحركة الاستشراقية :

تباينت الدوافع والأسباب التي أدت بالمستشرقين إلى خوض غمار الدراسات الإسلامية والبحث في مكنوناتها وأسرارها، وتسليط الضّوء على كل صغيرة وكبيرة فيها، فنجد:

1.2.2- الدّوافع الدينيّة: فلاشكّ أنّ الدافع الأبرز من دوافع الاستشراق كان دينيًّا، ولعلّ خير دليل على ذلك هو أنّ الاستشراق قد نشأ من رحم الكنيسة، وقام في بداياته الأولى على كاهل الرهبان والقساوسة، فقد توجّهوا إلى الأندلس، واغترفوا من علومها، ودرسوا على أيدي علمائها، ونجد من أوائل الذين قصدوها الراهب الفرنسي جربر دي أوراليك ، كما نجد من بينهم أيضا الرّاهب بطرس المبجل، وهو رئيس الدير المعروف في مدينة كلوني، وقد تمت تحت إشرافه أول ترجمة للقرآن الكريم من اللغة العربية إلى اللاتينية سنة(1143م)، وقد كانت هذه الهبّة من طرفهم لمحاولة فهم هذا الدّين الذي قوّض أركان العقيدة المسيحيّة، وأتى على بنيانها من القواعد، فهو منذ البداية "يهاجم معتقدات النّصارى ويفنّدها، ويقرّر زيفها وبطلانها بالأدلّة الدّامغة مثل التثّليث وبنوّة المسيح والصّلب والفداء، فأدركوا أنّ الإسلام يمثّل تهديدا حقيقيا للنّصرانيّة التي غزاها في عقر دارها، وأقام سدًّا منيعًا في وجه انتشارها، وهبّوا يكتبون عن الإسلام بروح متعصّبة وقلوب حاقدة" (محمد، صفحة 28)، ولذلك فقد كان هدف أولئك الرهبان والمبشرين منذ البداية "أن يطعنوا في الإسلام ويشوهوا محاسنه ويحرفوا حقائقه ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام- وقد كان يومئذ الخصم الوحيد للمسيحية في نظر الغربيين- دين لا يستحق الانتشار...وهم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلاميّة الأولى ثمّ الحروب الصّليبيّة ثمّ الفتوحات العثمانيّة في أوربّا بعد ذلك في نفوس الغربيين من خوف من قوّة الإسلام وكره لأهله" (السباعي ، 2018، صفحة 19،18).

ويجمع الكثير من الدّارسين والمهتمّين – من العرب والغربيين- بظاهرة الاستشراق على أنّ الدّافع الدّيني كان على رأس الدّوافع الأخرى، بل نجده دائما مصاحبًا لها، ولذلك فقد عكست كتابات كثير من المستشرقين في فترة القرون الوسطى-ووصولا إلى العصر الحديث- النّظرة الكنسيّة اتجاه الإسلام والمسلمين، فطفقوا يشوّهون

كلّ ما له علاقة بالدّين الإسلامي، وجاءت كتاباتهم طافحة بكثير من الأكاذيب والمغالطات، ولم يسلم من هذا التّلفيق كبار المستشرقين الذين كان لهم باع طويل في الدّراسات الاسلامية، والذين قدّموا – من جهة أخرى– خدمات لا يمكن إنكارها في نفض الغبار عن كثير من الذّخائر الإسلامية، ولكنّهم مع الأسف يحافظون على موضوعيتهم ومنهجهم العلمي في غير الموضوعات الإسلامية، ولكن إذا تعلّق الأمر بالدّين الإسلامي شالتْ كفّتا الميزان، واستيقظت داخلهم أحقاد الكنيسة ضدّ المسلمين.

وممّا يؤسفُ له أنّه رغم التّطور العلمي الذي حصل في بلاد الغرب خلال العصر الحديث، والصّراع المرير الذي حصل بين العلم والكنيسة إلّا أنّ المستشرقين لم يتخلّوا عن عصبية القرون الوسطى، بل نجدهم يرددون ما قاله أسلافهم من قبل، وهذا باعتراف الغربيين أنفسهم، فنجد مستشرقًا كبرنارد لويس يعترف أنّ المستشرقين في العصر الحديث لم يوفّقوا في التّخلي عن نزعتهم الدّينية التي ورثوها عن المستشرقين في القرون الوسطى عند معالجتهم لمختلف القضايا الإسلاميّة حيث يقول بأنّه "لا تزال آثار التّعصّب الدّيني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلميّة" (زقزوق، صفحة 76).

2.2.2– الدّوافع الاستعمارية: لم تنقطع آمال الغربيين بعد الحروب الصّليبيّة في الاستيلاء على العالم الإسلامي وامتلاك خيراته، لذلك لم يهدأ لهم بال حتّى طردوا المسلمين من الأندلس، وبقوا يتحيّنون الفرص حتّى تجلّى لهم ضعف الدولة العثمانية وعدم قدرتها على حماية ولاياتها، وهنالك وجد الغرب فرصته التي لطالما انتظرها لاحتلال البلاد الإسلامية، فعاث الاستعمار الفرنسي والانجليزي في الأرض الإسلامية فسادا، وبطبيعة الحال فقد كان الاستعمار في حاجة ماسّة إلى معرفة هذه الشّعوب الشّرقية وكيفية التّعامل معها ولذلك فقد وجد "في المستشرقين قوالب جاهزة ذات علاقة قويّة بالشّرق، وعلى دراية كافية بالكثير من المعلومات التي تمهّد لحركة الاستعمار، ومن هنا تمّ التّلاحم بين الاستشراق والاستعمار، ودخل المستشرقون في مرحلة جديدة هي المرحلة الاستعماريّة" (الزيادي، 1998، صفحة 39).

وقد قدّم المستشرقون خدمات جليلة للاستعمار، ممثّلة في دراساتهم التي قاموا بها لسنوات طويلة في بلاد الشرق من دراسة لأحوال الشعوب الشرقية، ونمط معيشتها، وكذلك رسم الخرائط وغيرها، وفي المقابل كانوا يتلقّون الأموال من الاستعمار، كما سهّل لهم التحرك في البلاد الشرقية، ولذلك فقد كانت المنفعة متبادلة بين الاستعمار والاستشراق.

3.2.2– الدّوافع الاقتصاديّة: كذلك نجد من بين دوافع الحركة الاستشراقية الدافع الاقتصادي، فقد أسالت الثروات التي تتمتع بها البلاد العربية والإسلامية لعاب الدّول الغربية منذ القديم، فسعت بشتّى الطرق إلى الاستحواذ عليها، وإيجاد موطئ قدم لها في هذه الدّول، خاصّة مع التّخلف الذي تعاني منه هذه الأخيرة، وقد ساعدها المستشرقون في ذلك منذ البداية، فازدهرت "الدّراسات الجغرافية ومحاولات الاستكشاف، وكانت الدّراسات الثّقافية والاجتماعيّة وغيرها من الدّراسات التي دفعت إليها الحاجة لاستغلال الموارد الطّبيعيّة لهذه البقعة من العالم" (النملة، 2011، صفحة 69)، ويضاف إلى هذا أنّ تلك الدول الأوربية قد رغبت في مدّ مصانعها بالمواد الخام، وكذا تسويق منتجاتها، فكان لابد من التعرف على البلاد التي تمتلك الثروات الطبيعية،

ويمكن أن تكون لبضائعها أسواقا مفتوحة، فكان" الشرق الإسلامي، والدول الإفريقية والآسيوية هي الهدف" (المطبقاني، صفحة 10).

4.2.2- الدّوافع العلميّة: إلى جانب الدوافع السابقة للاستشراق نجد أيضا الدافع العلمي عند بعض المستشرقين، وهم الذين دخلوا إلى هذا المجال فحاولوا دراسة الإسلام دراسة موضوعيّة، بعيدًا عن النّظرة الكنسيّة، وبعيدًا عن الفرضيات المسبقة التي تهاجم الإسلام ثمّ تسعى إلى إيجاد دليل مهما كان تافهًا لتأييد حكمها، كما كان دافع بعضهم هو حبّ الاستطلاع والرغبة في التعرف على علوم الشرق، والملاحظ أنّ هذا الصّنف من المستشرقين قليل جدًّا مقارنة بغيرهم، ويرجع ذلك إلى نقص الحوافز المادّية والعائد المالي الذي تدّره عليهم كتبهم وبحوثهم، كما أنّ" أبحاثهم المجرّدة عن الهوى الجانح لا تلقى رواجًا، لا عند رجال الدّين، ولا عند رجال السّياسة، ولا عند عامّة الباحثين الغربيين، بل كثيرًا ما يتعرّضُ هؤلاء لمضايقات ومقاومات شديدة، من قبل رجال الدّين، ورجال السّياسة في بلدانهم " (الميداني، 2000، صفحة 132)، ولذلك لم يحظَ هؤلاء بالاهتمام الذي حظي به نظراؤهم المتعصّبون لآراء الكنيسة، وقد اتسمت كتاباتهم بالإنصاف إلى حدّ كبير رغم بعض الأخطاء التي وقعوا فيها نتيجة عدم تمكّنهم من اللغة العربيّة بشكل كاف من جهة، وعدم تعمّقهم في معرفة الإسلام من جهة أخرى.

3- لمحة موجزة عن المستشرق كارل بروكلمان وكتابه "تاريخ الشّعوب الإسلاميّة" (بدوي، 1993، الصفحات 98-105):

ولد المستشرق الألماني كارل بروكلمان بمدينة (روستوك) في السّابع من شهر سبتمبر سنة 1868م، في أسرة متوسّطة الحال، وقد كان حلمه منذ صغره أن يسافر ويعمل في المناطق الموجودة وراء البحار البعيدة، أو يعمل طبيبًا أو مترجمًا، أو مبشرا دينيا، وذلك حتّى يعيش حياة كريمة، ولذلك فقد بدأ دراسة العبرية والآرامية والسريانية، وهو لا يزال تلميذًا بالمرحلة الثانوية.

درس بروكلمان تخصّص اللغات الشّرقية في العديد من الجامعات الألمانية كروستوك، برسلاو، شتراسبورغ، وكان ذلك على يد أفضل المستشرقين الألمان ، ولعلّ أشهرهم تيودور نولدكه في جامعة شتراسبوغ، فبتوجيهه نال بروكلمان شهادة الدّكتوراه عن أطروحته الموسومة ب(العلاقة بين كتاب الكامل في التّاريخ لابن الأثير وكتاب أخبار الرّسل والملوك للطّبري).

عمل بروكلمان بالتّدريس في العديد من الجامعات الألمانية إلى غاية إحالته على التّقاعد نهائيًا سنة1953م، وكان إلى جانب عمله عضوًا في العديد من المجامع والجمعيات العلمية الألمانية والغربية والعربية، توفي بروكلمان سنة 1956م، مخلّفا ما يربو عن خمسمائة مؤلف، ونجد من بينها كتاب تاريخ الشّعوب الإسلامية الذي يعتبر نتيجة لسنوات طويلة قضاها بروكلمان في دراسة التّاريخ الإسلامي وقد صدر الكتاب سنة 1939م، وترجم إلى العديد من اللغات العالمية، وهو مقسّم إلى خمسة أبواب، وسنقتصر في بحثنا على الباب المعنون ب(العرب والإمبراطوريّة العربية)، وتحديدًا ما تعلّق منه بسيرة الرّسول ﷺ:

4- مواقف كارل بروكلمان من حوادث السّيرة النّبويّة من خلال كتابه تاريخ الشّعوب الإسلاميّة:

1.4- موقفه من مولد النّبي ﷺ:

شكّك كارل بروكلمان في السّنة التي ولد فيها النّبي ﷺ بقوله "لسنا نعلم علم اليقين السّنة التي ولد فيها النّبيّ، والمشهور أنّ ولادته كانت حوالي سنة 570 ولكنّ الذي لا شكّ فيه أنّها متأخّرة عن ذلك بعض الشّيء" (بروكلمان، 1968، صفحة 32)

والحقيقة أنّ ولادة النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام كانت على ما عليه جمهور العلماء سنة 570م في العام المعروف بعام الفيل ، أمّا يوم ولادته فقد كان يوم الاثنين، ولذلك فقد ثبت عنه حينما سئل عن صيام يوم الاثنين قوله " فيه ولدتُ، وفيه أنزل عليّ " (بن الحجّاج، صفحة 820)،أما الاختلاف فقد كان في تاريخ ولادته عليه السّلام، فقيل في الثاني من ربيع الأوّل، وقيل لثمان خلون منه، وقيل بل في العاشر منه، وهناك رأي آخر يرى أنّه ولد في الثّاني عشر من ربيع الأوّل، وهو رأي كثير من العلماء، ولذلك فقد درج المسلمون على الاحتفال بهذا اليوم من كلّ عام تعظيما للرّسول عليه الصّلاة والسّلام، وقد أثبتت الدّراسات الحديثة التي قام بها بعض الباحثين وعلماء الفلك من المستشرقين والمسلمين أن عام الفيل يوافق سنة571/570م.

والحقّ أنّ هناك روايات أخرى تُرجع ولادة الرّسول عليه السلام إلى ما قبل عام الفيل بسنوات، وروايات أخرى ترجعها إلى ما بعد عام الفيل بثماني سنوات أو عشرٍ ،أو ثلاثٍ وعشرين سنة، ولكنّها كلّها روايات معلولة متهافتة لا تصحّ، ولا تثبت أمام ميزان المنهج العلمي، وقد اعتمد بروكلمان في حديثه عن ولادة النّبيّ ﷺ على المستشرق هنري لامنس وهو مستشرق معروف بنظرته العدائية للإسلام، فقد أخّر لامنس هو الآخر ولادة الرّسول بعشر سنين بعد عام الفيل، وكان غرضه من ذلك إبطال صحة الحديث الذي ينصّ على أنّ الأنبياء يبعثون على رأس الأربعين، وبذلك يكون عمر الرّسول- حسب لامنس- عند بعثته ثلاثين سنة، وهذا الزّعم كما أسلفنا لا يقوم على روايات تاريخية صحيحة، ولكن يقوم على حقد دفين لبعض المستشرقين الغربيين اتجاه الإسلام ونبيّه، خاصة الذين كانت لهم صلة بالمؤسسة الدّينية المسيحية كهنري لامنس ومن على شاكلته.

2.4- موقفه من مكانة النّبيّ ﷺ وقبيلته في قريش:

حاول بروكلمان الحطّ من شأن النّبي عليه الصّلاة والسّلام وقبيلته، فرأى أنّها كانت قبيلة مغمورة، ليس لها أيّ شأن في الجاهلية، كما أنّ الرّوايات الإسلامية-حسبه- سعت جاهدة لتمجيد النّبيّ وقبيلته، حيث يقول" وليس يبدو أنّ عشيرته هاشم قد لعبت دورا على شيء من الامتياز في مكّة، والواقع أنّ الرّوايات الإسلامية قد سعت إلى أن تحيط النّبيّ بهالة من التّمجيد منذ اللحظة الأولى " (بروكلمان، 1968، صفحة 32).

وقول بروكلمان هذا يجانبه الصّواب فقد كان النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم رفيع النّسب في قومه ،كما أنّ بني هاشم كانوا ذوي عزّة ومنعة، وقد ورثوا المجد والشّرف كابرًا عن كابر ،وممّا يؤكّد كلامنا هذا شهادة أبي سفيان-وقد كان مشركا- عندما التقى في إيلياء بهرقل عظيم الرّوم، فقد سأله هرقل عن طريق ترجمانه أسئلة دقيقة عن نسب الرّسول ودعوته، وقد كانت إجابات أبي سفيان صادقة لخوفه من هرقل، وقد اعترف في حديثه بعلو نسب الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، كما ورد أيضا في صحيح مسلم من حديث واثلة بن الأسقع أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم قال" إنّ اللّه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم" (بن الحجّاج، صفحة 1782)، فهذا الحديث يدلّ على مكانة بني هاشم في قريش ، وعلى أنّ محمّدا خير من مشى على وجه

البسيطة، كما تورد كتب السّيرة قول أبي جهل " تنازعنا نحن وبني عبد مناف الشّرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتّى إذا تجاثينا على الرّكب وكنّا كفرسي رهان، قالوا منّا نبيّ يأتيه الوحي من السّماء، فمتى ندرك هذه، واللّه لا نؤمن به أبدا ولا نصدّقه" (ابن هشام، صفحة 316)، وهو مصداق لقوله تعالى "وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلْمًا وعتوًّا" (القرآن الكريم، النّمل: 14).

وقد سبقت سنّة الله في أنبيائه من قبل أنّه لم يبعث رسولا إلّا وقد كان في منعة من قومه، وذلك كي يدفعوا عنه كيد الكافرين بدعوته ويذودوا عنه ولا يسلموه لأعدائه، فقد حكى القرآن عن نبي اللّه شعيب عليه السّلام "قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا ممّا تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفًا ولولا رهطك لرجمناك" (القرآن الكريم، هود: 91)،وهذا ما حصل مع الرّسول الكريم فقد كانت عشيرته سندًا له في مراحل دعوته حتّى وإن لم يكن بعضهم مؤمنا بما يدعو إليه، فوقفوا إلى جانبه في العام الذي قرّرت فيه قريش مقاطعة بني هاشم لدعمهم للرسول ﷺ، وهذا عمّه أبو طالب يرفض التّخلي عنه رغم أنّه رفض الإسلام، ومات على دين آبائه.

ومن هنا تظهر لنا المكانة الرّفيعة والمنزلة العاليّة التي تبوّأها الرّسول وعشيرته في قريش، وليس كما ادعى بروكلمان الذي اتّكأ في حكمه على نظرته العنصريّة ضد الإسلام والنّبي محمّد صلى الله عليه وسلّم.

3.4– اليهود والنّصارى مصدرٌ للقرآن الكريم حسب بروكلمان:

يقول بروكلمان "وتذهب الرّوايات إلى أنّه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنّصارى" (بروكلمان، 1968، صفحة 34).

بعد وفاة عبد المطّلب ولي أمر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام عمّه أبو طالب، وقد كان النّبيّ الكريم متعلّقا به أشدّ التّعلّق، لذلك فإنّ أبا طالب أبى إلّا أن يأخذه معه في تجارته إلى الشّام، وكانت هذه أول رحلة للنّبيّ، وقد ذكر ابن سيّد النّاس أنّه " كان في التّاسعة أو العاشرة أو الثّانية عشرة من عمره على اختلاف الرّوايات" (العمري، 1994، صفحة 106)، ثمّ إنّ القافلة القرشيّة نزلت ببصرى، وهي في طريق قريش إلى الشّام، وقد استقبلهم في تلك الرّحلة على غير العادة راهب يدعى بحيرا كان في صومعة له، وقد كان القرشيّون يمرّون عليه في رحلاتهم السّالفة فلم يصنع بهم مثل صنيعه ذلك العام، فقد أمر بأن يُعدّ لهم طعام كثير، وألّا يتخلّف عن طعامه أحد من القرشيين، وما كان ذلك كما يذكر أهل السّير إلّا لأنّ الرّاهب بحيرا قد رأى علامات على قرب ظهور نبيّ جديد، وقد تخلّف النّبيّ ﷺ في رحال قومه، ولكنّ الراهب ألحّ على دعوته، فلمّا جاء النّبيّ بدأ بحيرا يسأله ويسأل عمّه، ثمّ نصح أبا طالب أن يعود بابن أخيه إلى مكّة بعد فراغه من تجارته، وأن يحذر عليه من اليهود، فإنّه كائن له شأن عظيم.

هذه هي قصّة الرّاهب بحيرا مع النبيّ ﷺ، ومع أنّ بعض علماء المسلمين–قدماء ومُحدثين– قد رفضوا هذه القصّة من أساسها لأنّها معلولة من جهتي السّند والمتن إلّا أنّ المستشرقين ومنهم كارل بروكلمان يصرّون على إثباتها، ويذهبون في تأويلها كلّ مذهب، لا لشيء إلا ليثبتوا أنّ القرآن الكريم مأخوذ من المسيحيّة واليهوديّة وأنّ محمّدا عليه الصّلاة والسّلام قد ألّف القرآن بالاعتماد على الرّاهب بحيرا، ولكنّ مشكلة هؤلاء المستشرقين أنّهم دائما ما يطرحون الفرضيّات في المقام الأوّل ،ثمّ يجهدون أنفسهم في محاولة إيجاد حجج وبراهين لتدعيم النتيجة التي توصّلوا إليها قبل البحث.

فنجد أنّ بروكلمان يتحدّث عن "رحلات" رغم أنّ المصادر المعروفة تذكر أنّ النّبيّ ﷺ سافر مرّتين فقط، مرّة مع عمّه وهي المرّة التي التقى فيها ببحيرا إنْ صحّت القصّة، ومرة ثانية عندما خرج في تجارة خديجة بنت خويلد رفقة غلامها ميسرة، وكان النّبي حينها في الخامسة والعشرين من عمره بدليل زواجه من خديجة بعد رجوعه من رحلته.

وحتى وإنْ سلّمنا جدلًا بذلك اللقاء، فمن غير الممكن أن يستطيع الرّسول ﷺ وهو في الثّانية عشرة من عمره تأليف واختراع دين جديد لمجرّد لقائه ببحيرا أثناء وجبة غداء، ولو صدّقنا فرضية بروكلمان لكان الرّسول ﷺ هو الساعي للقاء الرّاهب للتّعلّم منه، ولكنّ الرّواية التي بين يدينا تخبرنا أنّ هذا الصّبي اليتيم قد تشبّث بعمّه لكي لا يتركه وحيدا في مكّة، كما تثبت أن بحيرا هو الذي كان حريصا على لقاء هذا الصّبيّ الذي تنبّأ له بمستقبل عظيم، ولو كان الرّاهب " مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز لكان هو الأحرى بالنّبوّة والرّسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم" (الزّرقاني، صفحة 326).

ويضاف إلى هذا أنّه من الثّابت تاريخيّا أنّ الرّسول ﷺ كان أمّيّا، فلم يكن يعرف القراءة والكتابة، وهو حال السّواد الأعظم من أهل مكّة في ذلك الوقت، فلم تكن هناك دور في مكّة لتعلّم القراءة والكتابة، وأميّته هي إحدى معجزاته عليه الصّلاة والسّلام، فلو كان متعلّما لأمكن لغيره أنْ يتّهمه بأنّه تعلّم على يد شخص آخر، أو أنّه قرأ في كتب سابقة عنه، ولكنّ ذلك لم يحدث فقد كان غايةُ ما اتّهمه به كفّار مكّة أنّه تعلّم من عبد رومي، وهم يعرفون مسبَقًا كذبهم فلسان ذلك العبد أعجمي، فأنّى له أنْ يأتي بما عجزوا هم أنفسهم عن الإتيان بمثله.

كما نجد أيضًا مخالفة القرآن الكريم لليهود والنّصارى وذمّهم لأنّهم حرّفوا الكلم عن مواضعه، وانحرفوا عن جادّة الصّواب ،وناصبوا الرّسول عليه الصّلاة والسلام العداوة رغم أنّهم يجدونه مكتوبا عندهم في كتبهم، ولو كان القرآن الكريم مأخوذا من هاتين الدّيانتين لوجدنا القرآن الكريم يمدحهما، ولكنّ العكس هو الصّحيح، أمّا وجود تشابه بين القرآن والمسيحيّة واليهوديّة، فلا يدلّ على أنّ القرآن تقليد لهما، بل يدلّ على أنّ الكتب الثّلاثة قد خرجت من مشكاة واحدة لولا التّحريف الذي أصاب المسيحيّة واليهوديّة على يد أتباعهما.

لذلك نقول أنّ شبهة أخذ الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام عن أحبار اليهود ورهبان النّصارى لا تعدو أن تكون اجترارا لما ردّده مشركو مكّة في القديم، وهي شبهة متهافتة لا يسندها أي دليل علمي.

4.4- موقف بروكلمان من ظاهرة الوحي:

يقول بروكلمان " فكان يضجّ في أعماق نفسه هذا السؤال: إلى متى يمدّهم الله في ضلالهم، مادام هو عزّ وجلّ قد تجلّى آخر الأمر للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنّه مدعوّ إلى أداء هذه الرّسالة رسالة النّبوّة، ولكنّ حياءه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوّته فترة غير قصيرة، ولم تتبدّد شكوكه إلّا بعد أنْ خضع لإحدى الخبرات الخارقة في غار حراء، ذلك بأنّ طائفا تجلّى له هناك يوما، هو الملك جبريل على ما تمثّله محمّد فيما بعد، فأوحى إليه أنّ الله قد اختاره لهداية الأمّة" (بروكلمان، 1968، صفحة 36).

وهنا يواصل بروكلمان نفث سمومه وهجومه على كلّ ما يمتّ للإسلام بصلة، وذلك عند تطرّقه لنبوة النّبيّ محمّد زاعمًا أنّها مجرّد فكرة وتخيّلات نضجت برأس الرّسول الكريم بعدما ضاق ذرعًا بقومه الوثنيين

وآلهتهم التي تجلّى له فراغها، وكلام بروكلمان هذا هو نفسه كلام الجاهليين الذين اعترضوا على نبوّة النبيّ، فرموه بالسّحر والكهانة والجنون، وهو نفسه كلام من سبقه ومن جاء بعده من المستشرقين الذين يجانب أغلبهم الصوّاب عند حديثهم عن الإسلام ونبيّه الكريم، و" لا غرو فهؤلاء المستشرقون نزعهم عرق واحد، وجمعتهم راية واحدة، فليس بغريب أنْ تكثر الموافقات في أحكامهم وإنْ تفاوتت طرق الفكر ووجهات النّظر" (الغزالي، صفحة 15).

ولذلك أيضا فإننّا نقول أنّ محمّدا عليه الصّلاة والسّلام لم يكن بدعًا من الرّسل في ذلك، فقد أوحى الله سبحانه وتعالى إليه كما أوحى من قبله إلى جميع أنبيائه ورسله عليهم السّلام، قال تعالى "كان النّاس أمّة واحدة فبعثَ الله النّبيين مبشّرينَ ومنذرينَ وأنزلَ معهم الكتابَ بالحقّ ليحكمَ بينَ النّاس فيما اختلفوا فيه " (القرآن الكريم، البقرة: 213) ، ولا أدلّ على ذلك من القرآن الكريم نفسه، فهو كتاب الله المعجز، وما كان لبشر مهما بلغ من سعة العلم والثقافة أنْ يأتي بمثله، لذلك فقد تحدّى الله الأوّلين والآخرين بأن يأتوا بسورة أو عشر سور من مثله أو يُعملوا أذهانهم لإيجاد خطأ فيه، وكلّ هذا للتدليل على إلهية هذا الكتاب ،قال تعالى "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" (القرآن الكريم، النّساء: 82)،كما أنّنا نجد اختلافا واضحا بين أسلوب القرآن الكريم وبين أسلوب الحديث الشّريف، وهو ما يثبت أيضا أنّ القرآن وحي إلهي، ولم يفتره النّبيّ □ على الله تعالى.

5.4- فرية أنّ العبادات في الإسلام مستمدّة من اليهود والفرس:

يقول بروكلمان "وتأثّرت اتجاهات النّبيّ الدّينيّة، في الأيّام الأولى من مقامه في المدينة بالصّلة التي كانت بينه وبينَ اليهود، وأغلب الظّنّ أنّه كان يرجو عقب وصوله إلى المدينة أنْ يدخل اليهود في دينه، وهكذا حاول أنْ يكسبهم من طريق تكييف شعائر الإسلام بحيث تتّفق وشعائرَهم في بعض المناحي، فشرّع صوم العاشوراء، وهو اليوم العاشر من المحرّم، على غرار الصّوم اليهوديّ في يوم الكفّارة الذي يقع عندهم في العاشر من شهر تشري. وبينما كان المؤمنون في مكّة لا يصلّون إلّا مرّتين في اليوم، أدخل في المدينة على غرار اليهوديّة أيضا صلاة ثالثة عند الظّهر" (بروكلمان، 1968، الصفحات 46-47)

ويضيف أنّه قدْ "جعلت الظّروف المتأخّرة المتأثّرة بالفرس عدد الصّلوات المفروضة في اليوم الواحد خمسًا، الأولى قبل الفجر، والثّانية عند الظّهر، والثّالثة من الأصيل حتّى غروب الشّمس، والرّابعة عند المغرب، والخامسة في العشاء" (بروكلمان، 1968، صفحة 74).

وجوابنا على ترّهاته أنّ الله جلّ وعلا بعث النّبيّ محمّدًا عليه الصّلاة والسّلام لكافة النّاس ،كما قال سبحانه وتعالى" وما أرسلناك إلّا كافّة للنّاس بشيرًا ونذيرًا ولكنّ أكثرَ النّاس لا يعلمون" (القرآن الكريم، سبأ: 28)، ولذلك فمن الطبيعي أنْ يكون الأنبياء حريصين على هداية أقوامهم، وذلك لأنّهم يعلمون أكثر من غيرهم ما أعدّه الله يوم القيامة للمؤمنين الموحّدين من النّعيم المقيم، وللمشركين العصاة من العذاب و الجحيم.

وإذا كان النّبيّ يرجو أنْ يدخل اليهود والنّصارى في دين الله فذلك كان خوفًا عليهم من عذاب الله سبحانه وتعالى، فقد كانوا أهل كتاب، وكانوا على علم بظهور نبيّ في ذلك الزّمان، ولذلك فقد كان يفترض أنّهم أقرب إلى الإيمان من غيرهم، أمّا ترديد المستشرقين ومن بينهم بروكلمان لقضيّة أنّ النّبيّ قد حاول بادئ الأمر

استمالة اليهود إلى دينه من خلال تكييف شعائر الإسلام لتتوافق مع شعائرهم فهو كلام عار عن الصّحّة، فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام مأمور أنْ يبلّغ رسالة ربّه مثلما أنزلتْ، كما قال تعالى "يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزِلَ إليْك من ربّك وإنْ لم تفعلْ فما بلّغتَ رسالتهُ والله يعصمكَ من النّاسِ إنّ الله لا يهدي القومَ الكافرين" (القرآن الكريم، المائدة : 67)، وقوله أيضًا " قلْ أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول فإنْ تولّوا فإنّما عليه ما حُمّل وعليكم ما حُمّلتمْ وإنْ تطيعوهُ تهتدوا وما على الرّسولِ إلّا البلاغُ المبينُ" (القرآن الكريم، النّور : 54)، فالقرآن الكريم واضح في أنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ليس له من الأمر شيء إلّا البلاغ.

أمّا بخصوص صوم يوم عاشوراء فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها قولها "أنّ قريشًا كانت تصوم يوم عاشوراءَ في الجاهليّة، ثمّ أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بصيامه حتّى فرض رمضانُ، وقال رسول الله صلّى الله عليّه وسلّم: من شاء فليصمه ومن شاء أفطره" (البخاري، 2002، صفحة 456)، فالحديث يبيّن أنّ صوم يوم عاشوراء كانَ معروفًا قبل هجرة النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام إلى المدينة وبذلك تنتفي شبهة أخذ النّبيّ عن أهل الكتاب.

أمّا الصّلاة فقد فرضت بداية ليلة الإسراء والمعراج، ثمّ اتّخذت صورتها الحاليّة في المدينة بعد أن اكتمل الدّين، وأمن المسلمون على أنفسهم من بطش مشركي مكّة، ولا علاقة لها بصلاة اليهود لا من قريب ولا من بعيد، وهذا ما يدلّ عليه الحديث في البخاري "حدّثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن صالح بن كيسان عن عروة بن الزّبير عن عائشة أمّ المؤمنين قالت: فرض الله الصّلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسّفر، فأقرّت صلاة السّفر وزيد في صلاة الحضر" (البخاري، 2002، صفحة 99).

ولذلك فلا صلة بين العبادات في الإسلام وبين العبادات اليهوديّة كما يدّعي بروكلمان، وإنْ كان ثمّة تشابه، فلأنّ مصدر الكتب السّماويّة واحد، وليس لأنّ القرآن الكريم مأخوذ من الكتب السّابقة.

الخاتمة:

نخلص في الأخير من خلال مناقشتنا لبعض آراء بروكلمان حول سيرة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أنّه لم يأتِ بجديد يذكر، ولم يكن كلامه في كتابه عن السّيرة النّبويّة بنفس الرّوح التي نجدها في مصنّفاته الأخرى، فقد وجدناه في كلامه عن السّيرة تائهًا، يخبط خبط عشواء، فجاءت آراؤه أحيانًا دون دليل علميّ يسندها، وجاءت أحيانًا أخرى اجترارًا دون تمحيص ولا تدقيق لكلام أساتذته المستشرقين من أمثال نولدكه وفلهاوزن ولمانس، وغيرهم من غلاة المستشرقين، فهي أحكامٌ جاهزة، موضوعة مسبقًا بتأثير من الكنيسة المسيحية، ثمّ يسعى هو وغيره إلى محاولة إثباتها ونفخ الرّوح فيها من خلال الرّوايات الواهية والأحاديث الضّعيفة.

ولذلك فلا سبيل إلى حوار جاد مع العلماء والمستشرقين الغربيين- وأقصد المتعصّبين منهم-، ولا سبيل في اجتماعهم مع المسلمين على كلمة سواء إلّا إذا تخلّصوا من أحكامهم المسبقة، وأزالوا الغشاوة التي فرضتها عليهم الكنيسة الغربية، وحاولوا دراسة الإسلام ونبيّه الكريم دراسة علميّة موضوعية في ضوء المناهج العلمية الرّصينة، وحينها فقط من الممكن أنْ نأمن جانبهم أو نصل معهم إلى نقاط اتّفاق.

ـ قائمة المراجع:

- إسماعيل علي محمد. **الاستشراق بين الحقيقة والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)**. دار الكلمة للنّشر والتّوزيع.
- أكرم ضياء العمري. (1994). **السّيرة النّبويّة الصّحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدّثين في نقد روايات السّير النّبويّة** (ط 6). المدينة المنوّرة: مكتبة العلوم والحكم.
- ثابت عيد. (1999). **صورة الإسلام في التراث الغربي(دراسات ألمانية)**. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- عبد الرحمان بدوي. (1993). **موسوعة المستشرقين** (ط 3). بيروت: دار العلم للملايين.
- عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني. (2000). **أجنحة المكر الثّلاثة وخوافيها: التّبشير، الاستشراق، الاستعمار** (ط 8). دمشق: دار القلم.
- عبد الملك ابن هشام. (بلا تاريخ). **السّيرة النّبويّة**.
- علي ابراهيم الحمد النملة. (2011). **كنه الاستشراق: المفهوم– الأهداف– الارتباطات** (ط 3). بيروت: بيسان للنشر والتوزيع.
- كارل بروكلمان. (1968). **تاريخ الشّعوب الإسلاميّة** (ط 5). (نبيه أمين فارس، و منير البعلبكّي، المترجمون) بيروت: دار العلم للملايين.
- مازن المطبقاني. (بلا تاريخ). **الاستشراق** (د ط).
- مجد الدّين الفيروزآبادي. (2005). **القاموس المحيط** (ط 8). بيروت: مؤسّسة الرّسالة.
- محمّد ابن إسماعيل البخاري. (2002). **صحيح البخاري** (ط 1). دمشق– بيروت: دار ابن كثير.
- محمّد الغزالي. **دفاع عن العقيدة والشّريعة ضدّ مطاعن المستشرقين** (ط 5). نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
- محمّد عبد العظيم الزّرقاني. **مناهل العرفان في علوم القرآن**. دار الكتاب العربي.
- محمّد فتح الله الزيادي. (1998). **الاستشراق،أهدافه ووسائله** (ط1). دار ابن قتيبة.
- محمود حمدي زقزوق. **الاستشراق والخلفيّة الفكريّة للصّراع الحضاري**. القاهرة: دار المعارف.
- مسلم بن الحجّاج. (بلا تاريخ). **صحيح مسلم**. بيروت: دار الكتب العلميّة.
- مصطفى السباعي . (2018). **الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم**. دار العلم والمعرفة.